تربية الإمام الحسن عليه السلام

<"xml encoding="UTF-8?>

مقدمة :

يحتاج الطفل - أي طفل - إلى هندسة و موازنة بين ميوله و طاقاته ، ويفتقر إلى تربة صالحة ينشأ فيها و تصقل مواهبه . و يعوزه تنظيف لموارد الثقافة التي يتلقاها ، و الحضارة التي يتطبع عليها ، والتربية التي ينشأ عليها . إنه عالم قائم بنفسه ، يحمل كل سمات الحياة بصورة مصغّرة ، في صخبها و أمنها ، في سعادتها و شقائها ، في ذكائها و بلادتها ، في صفائها و حقدها ، في تفوّقها و تأخّرها ، في إيمانها وجحودها ، في حربها و سلمها ، إلخ . وهذا ما أشغل العلماء و الباحثين ، فراحوا يعدون البحوث ، وي لقون المحاضرات ، ويؤلفون الكتب ، و يوردون النظريات في مسألة (تربية الطفل) .

ون شأ من بينهم عِدَّة ترى أن سلوك الطفل مرتبط بالعوامل الوراثية التي يحملها بين جوانحه ، و رأى عكس ذلك آخرون . فأرجعوا كل أنماط السلوك الفردي و الإجتماعي إلى البيئة و المحيط ، و التربية و التنشئة ، و أنكروا كل أثر إلى الوراثة ينسب . و بلغ الخصام بين هاتين المدرستين في علم النفس و التربية إلى أنك ما تكاد تفتح كتاباً يتناول موضوع التربية إلا و جدته إلى إحدى المدرستين يميل ، وعن أحد الرأيين يدافع ، مفنداً الرأي الآخر . و لعلك تسأل : أي الرأيين أصح ؟ و أي العاملين في سلوك الطفل أهم : الوراثة أم التربية ؟!

فبدلاً من أن نجيبك على سؤالك هذا ، نسأل بدورنا أيضاً : أيهما أهم للسيارة : المحرك ، أم الوقود ؟! هذه هي مشكلة التربية . و سنلقي الضوء في السطور القادمة على الآثار المترتبة لسيرة الإمام الحسن (عليه السلام) من خلال هذين الجانبين المهمين .

الأول : الوراثة

ليس هناك من شك بأن للوراثة أثرها الكبير في صياغة الفرد صياغة مكيَّفة بالبيئة التي انبعث منها و خلق فيها . و بيتُ أبناء أبي طالب ، كان خير البيوت لإنشاء الإنسان الكامل ، فكيف وقد وُلد الحسن (عليه السلام) من عبد المطلب مرّتين ، مرة من علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، و أخرى من فاطمة (عليها السلام) بنت النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ .

كما كان علي (عليه السلام) مولوداً عن هاشم مرّتين ، ولا نريد أن نشرح مآثر بيت هاشم ، و بالخصوص أسرة عبد المطلب فيهم ، فإنها ملأت السهل والجبل ، بل نقول : " ناهيك عن بيت بزغ منه الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) ، و الوصي العظيم الإمام علي (عليه السلام) " . و حسب علمِ حساب الوراثة أن التأثير قد يكون من جهة الأب ، فيستصحب كلَّ سماته و صفاته ، وقد يكون من جانب الأم ، وقد تحقق في الحسن (عليه

السلام) هذا الأخير .

فقد برزت فيه سمات أمّه الطاهرة لتعكس صفات والدها العظيم محمد (ص) ، فكان أشبه ما يكون بالنبي منه بالإمام ، و طالما كان يطلق النبي قوله الكريم : (الحسن منّي والحسين من علي) .

و قد يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الكلمة في الأحداث التي جرت بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ، و طبيعة الظروف التي قضت عند الحسن (عليه السلام) أن يتخذ منهج الرسول (صلى الله عليه وآله) أُسوةً له ، دقيقة التطبيق شاملة التوفيق . فيعطي (عليه السلام) الناس من عفوه و صفحه ، و يعطي أعداءه من صُلحه و رِفقه ، مثلما كان يعطي الرسول (صلى الله عليه وآله) تماماً . كما اقتضت عند الحسين (عليه السلام) أن يبالغ في شِدَّته في الدين ، و غيرته عليه ، ويبدي من منعته ورفعته في أموره ، ما جعـل تشابهاً كبيراً بينه وبين عهد علي (عليه السلام) مع المشركين والكافرين والضالين .

الثاني : التربية

لقد أولى النبي (صلى الله عليه وآله) ، و الوصي (عليه السلام) ، و الزهراء (عليها السلام) ، من التربية الإسلامية الصالحة ما أهَّل الإمام الحسن (عليه السلام) للقيادة الكبرى . فإن بيت الرسالة كان يربّي الحسن (عليه السلام) وهو يعلم ما سوف يكون له من المنزلة في المجتمع الإسلامي ، كما يوضح للمؤمنين منزلته و كرامته . فكان النبيُّ (صلى الله عليه وآله) يرفعه على صدره ، ثم يقيمه لكي يكون منتصباً ، ويأخذ بيديه يجره إلى طرف وجهه الكريم جرَّاً خفيفاً وهو ينشد قائلاً : (حزقَّةً حزقَّة تَرَقَّ عينَ بَقَّة) . و معنى الحزقَّة : القصير الذي يقارب الخطو .

فكان (صلى الله عليه وآله) يلاطفه و يداعبه ، ثم يروح يدعو : (اللَّهُمَّ إني أُحبه فأَحبَّ من يُحبه) . و يقصد (صلى الله عليه وآله) أن يسمع الناس من أتباعه لكي تمضي سيرتُه فيه أسوة للمؤمنين ، بكرامة الحسن (عليه السلام) واحترامه .

و ذات مرة كان النبي (صلى الله عليه وآله) يصلي بالمسلمين في المسجد ، فيسجد و يسجدون ، يرددون في خضوع : سبحان ربي الأعلى وب حمده ، مرة بعد مرة ، ثم ينتظرون الرسول (صلى الله عليه وآله) أن يرفع رأسه ولكن النبيَّ يطيل سجوده ، وهم يتعجبون : ماذا حدث ؟ .

ولولا أنهم يسمعون صوت النبي لايزال يَبعث الهيبة والضراعة في المسجد لظنوا شيئاً . و لا يزالون كذلك حتى يرفع النبي (صلى الله عليه وآله) رأسه ، و تتم الصلاة ، وهم في أحَرِّ الشوق إلى معرفة سبب إبطائه في السجود فيقول لهم : (جاءَ الحسنُ فركبَ عُنقي ، فأشفقت عليه من أن أُنزله قسراً ، فصبرت حتى نزل اختياراً) .

و حيناً يصعد النبي (صلى الله عليه وآله) المنبر ويعظ الناس و يرشدهم ، فيأتي الحسنان (عليهما السلام) من جانب المسجد فيتعثَّران بـثَوْبَيهما ، فإذا به (صلى الله عليه وآله) يهبط من المنبر مسرعاً إليهما حتى يأخذهما إلى المنبر ، يجعل أحدهما على وركه اليمنى ، والآخر على اليسرى ، و يستمر قائلاً : صدق الله و رسوله (أَنَّمَا

أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ) ، (الأنفال : 28) ، نظرت إلى هذين الصبيَّين يمشيان و يعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما) .

وكان (صلى الله عليه وآله) يصطحبهما في بعض أسفاره القريبة ، ويُردفهما على بغلته من قُدَّامه ومن خَلْفه ، لئلا يشتاق إليهما فلا يجدهما ، أو لئلا يشتاقا إليه فلا يجدانه .

وكان (صلى الله عليه وآله) يشيد بذكرهما (عليهما السلام) في كلِّ مناسبة ، و يظهر كرامتهما إعلاناً أو تنويهاً . فقد أخذهما (صلى الله عليه وآله) معه يوم المباهلة ، و أخذ أباهما (عليه السلام) ، وأمّهما (عليها السلام) ، فظهر من ساطع برهانهم جميعاً ما أذهل الأساقفة . و دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) دار فاطمة (عليها السلام) ، و سَلَّم ثلاثاً على عادته في كلِّ دار ، فلم يجبه أحد . فانصرف إلى فناء ، فقعد في جماعة من أصحابه ، ثم جاء الحسن (عليه السلام) و وثب في حبوة جَدِّه ، فالتزمه جدُّه .

ثم قبَّله في فيه ، ثم راح يقول : (الحَسَن مِنِّي والحسينُ مِن عَلي) . و كثيراً ما كان الناس يتعجبون من صنع الرسول هذا ، كيف يعلنها لإبْنَيهِ إعلاناً .

فذات مرَّة شاهده أحد أصحابه وهو (صلى الله عليه وآله) يقبل الحسن ويشمُّه ، فقال - وقد كره الصحابي هذا العمل : إن لي عشرة ما قبَّلت واحداً منهم . فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : (مَن لا يَرحَم لا يُرحَم) .

وفي رواية حفص قال : فغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى التمع لونه ، و قال للرجل : (إن كان الله نزع الرحمة من قَلبِك ما أصنع بك ؟) . ثم لما رأى مناسبة سانحة أردف قائلاً : (الحسن و الحسين ابناي ، مَن أَحبَّهما أحبَّنِي ومن أحبَّني أحبه الله ، ومن أحبه الله أدخله الجنة . و من أبغضهما أبغضني ، ومن أبغضني أبغضه الله ، ومن أبغضه الله أدخله النار) . ثم أخذهما هذا عن اليمين ، و ذاك عن الشمال ، مبالغة في الحب .

ولطالما كان يسمع الصحابة قولته الكريمة : (هذان ابناي وابنا بنتي ، اللَّهُمَّ إني أُحبهما ، وأُحب من يُحبُّهما) . أو كلمته العظيمة يقولها وهو يشير إلى الحسن (عليه السلام) : (وأُحبُّ مَن يُحبُّه) .

و يرى أبو هريرة الإمام الحسن (عليه السلام) بعد وفاة جدّه الرسول (صلى الله عليه وآله) فيقول له : أرني أقبل منك حيث رأيت رسول الله يقبّل ، ثمّ قبّل سرّته . ومن ذلك يظهر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يعلن ذلك إعلاناً ، حتى يراه الناس جميعاً .

وقد بالغ النبيُّ (صلى الله عليه وآله) في مدح الحسنين ، حتى لكان يُظن أنهما أفضل من والدهما علي (عليه السلام) ، ممّا حدا به إلى أن يستدرك ذلك فيقول : (هُمَا فاضلان في الدنيا والآخرة ، وأبوهُمَا خَيرٌ مِنهُما) .

وطالما كان يرفعهما على كتفيه ، يذرع معهما طرقات المدينة ، و الناس يشهدون ، ويقول لهما : (نِعْمَ الْجَمل جَمَلُكما ، ونِعْمَ الراكبان أنتما) .

و طالما كان ينادي الناس فيقول (صلى الله عليه وآله) : (الحَسَنُ والحُسَين سيدا شباب أهل الجنة) .

أو يقول (صلى الله عليه وآله) : (الحَسن والحسين رَيحَانَتَاي مِن الدنيا) .

أو يقول (صلى الله عليه وآله) : (الحَسنُ والحُسين إمامان إنْ قَاما وإن قَعَدا) .

ولقد قال (صلى الله عليه وآله) مَرَّة : (إذا كان يوم القيامة ، زُيِّن عرشُ رَبِّ العالمين بكلِّ زينة ، ثم يؤتى بمنبرين من نور طولهما مِائة ميل ، فيوضع أحدهما عن يمين العرش ، والآخر عن يسار العرش . ثم يؤتى بالحسن والحسين ، فيقوم الحسن على أحدهما ، والحسين على الآخر ، يزيِّن الرب تبارك وتعالى بهما عرشه ، كما يُزَيِّنُ المرأةَ قرطاها) .

و عن الرضا (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال : (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : (الوَلَدُ رَيحانة ، وَرَيحانَتَاي الحسن والحسين)) .

و عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : (من أحبَّ الحَسَن والحسين فقد أحَبَّني ، ومن أبغضهُمَا فقد أبغَضَني) .

وعنه (صلى الله عليه وآله) : (الحَسَنُ والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة) .

و روى عمران بن حصين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال له : (يا عمران بن حصين ، إن لكلِّ شيء موقعاً من القلب ، وما وقع موقع هذين من قلبي شيء قط) . فقلت : كل هذا يا رسول الله ؟!!

قال (صلى الله عليه وآله) : (يا عمران ، وما خفي عليك أكثر ، إن الله أمَرَني بِحُبّهما) .

و روى أبو ذر الغفاري قال : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقبِّل الحسن بن علي (عليهما السلام) وهو يقول :

(من أحب الحسن والحسين وذُرِّيتهما مخلصاً لم تلفح النار وجهه ، ولو كانت ذُنُوبه بعدد رمل عالج ، إلاَّ أن يكون ذنباً يخرجه من الإيمان) .

و روى سلمان فقال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في الحسن والحسين (عليهما السلام) : (اللَّهُمَّ إنِّي أُحبُّهما ، فأَحبَّهما ، وأَحبِبْ من أحبَّهما) .

وما إلى ذلك من أقوال مضيئة نعلم - علم اليقين - أنها لم تكن صادرة عن نفسه ، بل عن الوحي الذي لم يكن ينطق إلاَّ به .

ولا زالت عناية الرسول (صلى الله عليه وآله) تشمل الوليد حتى شبَّ ، وقد أخذ من منبع الخير ومآثره ، فكان أهلاً لقيادة المسلمين .

وهكذا رآه الرسول (صلى الله عليه وآله) ومن قبله إله الرسول ، إذ أوحى إليه أن يستخلف عليّاً ، ثم حسناً وحسيناً .

فطفق يأمر الناس بمودَّتهم واتِّباعهم واتخاذ سبيلهم ، ولئِنْ شككنا في شيء فلن نشكَّ في أن من رَبَّاه الرسول (صلى الله عليه وآله) ، كان أولى الناس بخلافته .